وهنا يحسن البحث فيما قبل النص عن كيفية تكوُّن الاقتباس فى لحظة الإبداع ، أو إنجاب النص ، ثم الكيفية التى يصدر بها الاستشهاد ، والإطالة والإيحاء ، وإدماجها فى فضاء النص الذى يخرج إلى النور محمَّلا بها جميعا ، إذ لا شك أن ثمة ركاما من الصور يتزاحم على ذاكرة المبدع بمجرد شروعه فى تصوير التجربة ، فأمامه تجربته الخاصة ، وأمامه معطيات واقعه . ومن خلفه مقومات تراث ممتد ضارب فى أعماقه ، يدفع إليه بالأشباه والنظائر دفعاً ، بما لايمنعه من حق التوقف أمامها والتأمل لمقوماتها والإفادة منها .

وعلى أساس من تأمله وتوقفه تبدأ حركة الإبداع وتتجلى لحظة تخلُّق العمل من خلال صيغة مزدوجة يحكمها ذلك التفاعل ، ويشير إليها منطق ذلك التقارب الظاهر بين النص الأخير ، وبين ما قبله من نصوص وإن تعدَّدت وكثرت ، وكأن المبدع الأخير - بهذا الشكل - قد أضاف - وربما بدأ - من جديد علي الرغم من تعلُّق الأمر لديه بتحويل عناصر متفرقة وغير مترابطة إلى كلٍّ مترابط ومتماسك ومتجانس ، ومع هذا فإن الاتهام لا ينسحب على المنقول عنه ، باعتبار إمكانية وروده مفككا أو ممزقا لحظة انخراطه فى النص الجديد ، هو فقط بهذه الصفة باعتبار صوره الجزئية موضع التأثر أو الاقتباس ، وكأنما مال الأخير إلى انتقاء جزئيات بعينها تتسق مع خط تجربته ، وتصدر باسمها ، فكأن الاختيار - بهذه الصورة - ظل مبنيا علي أساس معطيات محددة معلَّقة به ، وتتخلق فى أبنية عمله بصورة أكثر فعَّالية ، تجعل من حقه جمع الأشتات المتباعدة فى نسق جديد له تميزه وله أيضا خصوصيته ، وله فى عمله - ضمن ماله- قيمته ووظيفته الجمالية وما وراءها علي مستوي الأداء والتلقي.

ومن واقع هذا القياس نستطيع رؤية النص من سياق الحضور المشترك بينه وبين نصوص القدماء التى لمعت أمامه ، فجذبه بريقها ، فكان الحضور فعليا لتلك النصوص ،. وظل ذلك الحضور مرهونا بمنطقه التحويلى الذى تتعدد فيه الدرجات ، أو تتنوع فيه الكيفيات المهيئة لكشف الطبيعة النوعية للعلاقة المتجددة بين النص الأخير وبين ما سبقه من نصوص متقدمة عليه ، أو ربما معاصرة له .

ومن هنا ، ومع تعدد تلك التوجهات يظل مثل هذا الدرس فى حاجة إلى تعدد المحاولات ، لعلها تظل قادرة علي الإسهام فى تأكيد اصطناع منطق الامتداد والتواصل بين الجديد والقديم ، سواء أخذنا فى درسه بمنهجنا التقليدى البسيط على وضوحه ودقته ، أو ملِنا